الأصل الحيوى والأصل المادى

بقلم الأستاذ محمد فريد وجدى

أجهد الماديون أنفسهم طوال القرنين: الثامن والتاسع عشر، ليثبتوا للعالم أن الكون كله يقوم بالمادة وحدها متحركة بقوى ذاتية فيها، وحاولوا أن يطردوا من العلم كل قول بضرورة وجود أصل حيوى مع المادة يؤثر فيها ويحولها إلى خلايا حية، يتخذها عناصر لبناء الكائنات الحية من نباتية وحيوانية، ويتولى قيادتها فيدفعها إلى أدوار من التطور تصل من طريقها إلى كمالها المقدر لها.

وهذا الرأى من الحيويين لم يتقبس من دين من الأديان، ولا يمت بصلة إلى عقيدة من العقائد، ولكنهم اضطروا إلى افتراضه اضطراراً علمياً، ليتوصلوا به إلى تعليل قيام الكائنات الحية على الحالة التى هى عليها.

ولكن الماديين رأوا أن هذا الافتراض لا ضرورة له، لا من ناحية أنهم لا يعترفون بوجود الحياة فى الكائنات الحية، ولكن من ناحية أن هذه الحياة ليست بأصل قائم بذاته المادة، ولكنها تطور من المادة نفسها ولا وجود له إلا بها.

وقد أتينا فى مقالات متعددة بهذه المجلة على آراء كبار علماء البيولوجيا المعاصرين فى الحياة، وسجلنا عليهم شهاداتهم فى أن الحياة هى التى تبنى الكائنات الحية وتشكلها، لا أن المادة هى التى توجدها وتتولى أمرها، فوهنت بهذه الآراء المبنية على المشاهدات أصول الماديين ووهت حججهم، وتوالت المستكشفات فاختلت صفوفهم ودالت دولتهم. ونريد هنا اليوم أن نأتى على بعض ما كانوا يتذرعون به من الشبهات، وعلى بعض ما قوبلوا به من المكافحات؛ لأن فى ذلك علماً بمحاولات الماديين وبما يجب أن يقابلوا به من الأدلة المبطلة لدعواهم.

كان الماديون يزعمون أن الحياة نشأت من المادة نشوءاً بتأثير الفواعل الطبيعية، فلما أعلن الأستاذ (هيكيل) الألمانى أنه اكتشف أصل الأحياء فى لطخ مخاطية تتكون فى بعض الرطوبات قبل أن تتألف إلى خلايا سماها (المونير)، طرب الماديون من هذا الاستكشاف واعتقدوا أن مذهبهم قد تأيد بالمشاهدة العلمية، وأعلنوا فى زهو كبير أن مذهب الحيويين قد أصيب بضربة قاضية لا تقوم له بعدها قائمة، ذاهبين إلى أن هذه اللطخ المخاطية هى أصل الخلايا الأولية.

ونحن لا نرى لتبجحهم موجباً حتى لو ثبت أن التولد الذاتى صحيح لا مرية فيه، لأن

القائل بوجود القوة الحيوية يستطيع أن يحاجهم بأن الذى أحدث هذه اللطخ هى القوة الحيوية المنبثة فى الكون مع المادة ، ثم تولتها وصنعت منها الخلايا الأولية التى تتألف منها الكائنات الحية ؛ فالتولد الذاتى إذا ثبت على هذا الوجه لا يقوى على إزالة الرأى القائل بوجود القوة الحيوية. فإن (مونير) هيكيل ليست بأكثر تركباً من الجسد الإنسانى ، فإذا كان الماديون أنفسهم يقولون بوجود الحياة فيه ، فمن السهل أن يتصور حلولها فى المونير ، وهى من البساطة بحيث تشبه بالمواد الجامدة ؛ فنظرية هيكيل تؤيد قول الحيويين ولا تدحضه .

وإذا أضفت إليه ماسبق لنا نشره فى هذه المجلة من رأى الأستاذ (هكسلى) من أن هذه المونير التى دعاها (الأسيب) تأتى من الأعمال ـ مع حرمانها من جميع الأعضاء ـ بما لا يصدر إلا عن الكائنات العاقلة ، حتى أنها لتبتنى لنفسها قواقع تحل فيها ذات أشكال هندسية بديعة ، إذا أضفت إليه هذا رأيت أن افتراض وجود القوة الحيوية أصبح أمراً لا بد منه . وقد رأيت أن (هكسلى) نفسه قد ذهب إلى أن القوة الحيوية هى التى تحدث هذا الأسيب ؛ وتحمله على الإتيان بالأعمال العقلية وهو محروم الأعضاء كل الحرمان .

ولكن الماديين يقولون: لا داعية لافتراض وجود الأصل الحيوى فإن خواص المادة والقوى المودعة فى ذراتها تكفى لإقامة حياة كل كائن حى ، وتدبير تركيبه وإبلاغه إلى أقصى ما يستأهله من مراتب الوجود حتى الإنسان نفسه .

فقال العلامة (شفلر) الألمانى :

« كل من هذه القوى (قوى الجواهر الفردة) تحدث فى غيرها تأثيراً يحصل الجسم بواسطته فى كل جزء من أجزائه على وحدة من رتبة أرقى ، فتجتمع التأثيرات الخاصة لكل هذه القوى الفردية ، وتحدث نتيجة عامة وتكون مقاومة تدمج جميع الأجزاء فى مجموع واحد يرتسم عليه الشكل الأساسى لكل خاصة شخصية » .

نقول : هل يخيل للأستاذ (شفلر) أنه بإيراده هذه العبارات قد فسر كل غامض من حياة الكائنات الحية ، وهو يعلم أن كلا من كلماتها حكم ليس له عليه دليل ؟ إن تعليل قيام الأجسام الحية بمثل هذه الخيالات يحتاج لقسط كبير من سهولة التصديق حتى يوافقه عليه أضعف العقول البشرية .

لو قال قائل : كيف يحصل الجسم الحى على وحدة عامة من تأثيرات مختلفة مادام لم يوجد أصل منظم للمجموع ؟ ومن يبنى هذا التركيب الجسمى الحى ؟ وكيف تعمل خصائص المواد على نظام واحد لإحداث نتيجة عامة لم تفكر فيها ولم تدركها ؟ وأى عقل يسوغ لنا أن نعتقد أن العناية المطلقة تحدث كل هذه المبدعات الحية المتنوعة التراكيب إلى مالا نهاية ؟

أحسن ما قيل حيال هذه الفروض ماقاله الأستاذ (تيسو) الطبيعي الفرنسي، قال: « أيجوز أن تقبل جميع هذه الاتفاقات (الصدف) فى سبيل رفض الأصل الحيوى المتمتع بقوة منظمة خاصة؟»

يضحك الطبيعي الألماني (ملدر) من قول الروحيين بوجود قوة حيوية ، ويضرب لذلك مثلاً فيقول: « لو تخيلنا معركة ناشبة بين ألوف من المتحاربين ، فليس المحرك لهم قوة واحدة هى التى تطلق المدافع وتحرك الصوارم الخ . . . تسمى بقوة المعركة ، ولكنها مجموع قوى لا تحصى تعمل كل منها فى دائرتها لإحداث ما يسمى بالمعركة » .

نقول: يستنتج من كلام (ملدر) أن القوة الحيوية ليست أصلا ولكن نتيجة ، ولكن غاب عنه أن هذه الأعمال العسكرية الفردية كانت تذهب سدى وتوجب خسران الموقعة لو لم تكن صادرة عن نظام عسكرى عام تنزل من عقل القائد إلى كل ضابط وسرى من كل ضابط إلى كل جندى ؛ فالنظام الذى شوهد فى الجيش المتحارب لم يجىء مصادفة أو اتفاقاً ، ولكنه جاء عن تدبير سابق وخطة مقررة ، وإذا كان هذا صحيحاً بين أفراد المتحاربين وهم عقلاء ، فكيف لا يكون صحيحاً بين أفراد المتحاربين وهم عقلاء ؟ وكيف لا يكون صحيحاً بين ذرات الجسد الحى المحرومة من كل عقل ؟ أليست حاجة الجسم الحى — وهو مركب من ذرات لا تعقل — إلى أصل حيوى منظم ، أكبر من حاجة المتحاربين العقلاء إلى قائد مدبر ؟

مما يزيد فى قيمة المذهب الروحى أن كبار الفزيولوجيين والمشرحين والطبيعيين من أنصاره مثل: بوفون وكوفييه وداروين وروسل ولاس وجون ليبوك وهكسلى وهربرت سبنسر وأوليفر لودج الخ ، وما كانوا كذلك إلا لأنهم لم يستطيعوا تعليل ظواهر الحياة بقوانين المادة المجردة، فاضطروا لفرض وجود قوة حيوية مستقلة تتنزل على المركبات الآلية ، وتشرق فيها على قدر استعدادها ودرجة تركيبها .

قال العلامة الطبيعي (بوفون) الفرنسى فى كتابه (التاريخ الطبيعي) :

« إن الدوالب الحقيقية لتركيبنا الجثمانى ليست هى هذه العضلات ولا هذه الشرايين ، ولا هذه الأوردة ، ولكنها قوى داخلية لاتتبع قوانين الميكانيكا الساذجة التى تخيلناها وأردنا أن نحيل كل شىء إليها » .

وقال الدكتور (سبنز) فى كتابه (علم الملاحدة) :

« الظواهر الحيوية كثيرة التركيب، والقوى الطبيعية مع اشتراكها معها اشتراكا لامشاحة فيه — وإن كان يصعب قياسه — هى خاضعة لقوة عليا ترأسها وتستخدمها لأغراضها »

ويحسن بنا أن نتوج هذا المقال بكلمة ثمينة كتبها العلامة الفرنسى (لوجيل) فى كتابه (العلم والفلسفة) قال :

« العلم يستسلم أحياناً لشكوك وإنكارات تزعجنا، ولكن للعلم مسايير لا يسبرها غور ، فهو يكتفي بالألفاظ كلما لم يجد سبيلاً للنفوذ إلى سرائر الظواهر المحسوسة .

« تكثر الكيمياء من ذكر الألفة ؛ أليست هذه الألفة قوة فرضية وآنية غير مدركة بالحواس كالحياة والروح ؟ الكيمياء ترجع إلى الفيزيولوجيا فكرة الحياة ، وتأبى عليها أن تشتغل بها ؛ ولكن الفكرة التي تحوم حولها الكيمياء هل فيها ظل من الحقيقة ؟ هذه الفكرة هي غالباً لا تدرك ليس فقط في أصلها ولكن في نتائجها أيضاً .

« هل يمكن للانسان أن يتأمل لحظة مثلا في القوانين المسماة بقوانين برتلو بدون أن يدرك بأنه حيال سر لا يسبر غوره ؟

« وإذا اعتبرنا ظاهرة بسيطة من ظواهر الاتحاد الكيميائي ورأينا هذا الميل الذي يدفع بعض الذرات إلى بعض فتتباحث ثم تنضام بعد تخلصها من المركبات التي كانت تحويها ؛ أليس في هذا ما يحير العقل ؟

« كلما أمعن الانسان في درس العلوم من وجهتها المعنوية زاد اعتقاداً بأن ليس في العلم ما يمنع من اتفاقه مع أبعد الفلسفات العقلية مرمى .

« العلوم تحلل العلاقات وتأخذ القياسات وتكتشف النواميس التي تنظم عالم الظواهر ، ولكن لا يوجد ظاهرة واحدة ، مهما كانت تافهة ، لا تضعها العلوم حيال أمرين ليس الأسلوب التجريبي عليهما من سبيل . أولها : أصل المادة التي تغيرت بواسطة تلك الظاهرة الطبيعية ، وثانيهما القوة التي استدعت هذه التغيرات فيها .

« نحن لا نعلم ولا نرى إلا الظواهر والقشور ، أما الحقيقة والعلة فتأبيان أن تنكشفا لنا ، وإنه ليحق لفلسفة عالية أن تعتبر كل القوى الخاصة التي أفاعيلها قد تحللت بالعلوم المختلفة صادرة عن قوة أولية أبدية واجبة الوجود مصدر كل حركة ومركز كل عمل ، إذا وجهنا أنفسنا هذه الوجهة تظهر لنا الحوادث الطبيعية والكائنات ذاتها صوراً متغيرة لفكرة إلهية » انتهى .

محمد فريد وجدي

المعرفة في سوريا وفلسطين ولبنان

تطلب « المعرفة » في سوريا وفلسطين ولبنان من فروع شركة الخواجات فرج الله إخوان

المعرفة في يافا

تطلب « المعرفة » في يافا من مكتبة فلسطين بساحة الجرينة ، لصاحبها سليمان أفندي الخطيب